

كان النبي صلى الله عليه وسلم يمتاز بفصاحة اللسان، وكان من ذلك بالمحل الأفضل، وخص ببدايع الحكم، اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونقكلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي. صفات أدبه الله بها، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يزد معكثرة الأذى إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حُلماً، وقالت عائشة: ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها. وكان من صفة الجود والكرم على ما لا يقادر قدره، كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، قال ابن عباس: كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة. وقال جابر: ما سئل شيئاً قط فقال: لا. وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذي لا يجهل، وفر عنه الكمأة والأبطال غير مرة، أحصى تلهف - رة، وحفظت عن هجولة سواه، قال علي بن كنان: إذا حامي الـبأس وأحمر رتـلـح دُق، اتقـيـنـا بـر سـو لـلـلـه صـلـي اللـه عـلـيـه و سـلـم فـمـا يـكـون أـحـد أـقـرب إـلـى العـدو مـنـه. قال أنس: فزع أهل المدينة ذات ليلة، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً، على فرس لأبي طلحة عري، وهو يقول: (لم تراعوا، قال أبو سعيد الخدري: كان أشد حياء من العذراء في خدرها، وإذا كره شيئاً عرف في وجهه. وكان لا يثبت نظره في وجه أحد، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، لا يشافهاً حداً بما يكره حياء وكر منفس، وكان لا يسمي رجلاً بلغ عنه شيء يكرهه،) ما بال أقوام يصنعون كذا. يغضي حياء ويغضي من مهابته ** فلا يكلم إلا حين يبتسم اعترف له بذلك مجاوروه وأعداؤه، ويتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام، روي الترمذي عن علي أن أبا جهل قال له: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، وسأل هرقل أبا سفيان، وأبعدهم عن الكبر، ويجلس في أصحابه كأحد، ويخيط ثوبه، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم في بيته، وكان أوفي الناس بالعهود، وأدباً، ولا يجزي بالسيئة السيئة، وكان لا يدع أحداً يمشي خلفه، لا يترفع على عبيده وإمائته في مأكل ولا ملبس، ويخدم من خدمه، ولم يقل لخدمه أف قط، ويشهد جنائزهم، ولا يحقر فقيراً لفقره. كان في بعض أسفارة فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: على ذبحها، وقال آخر: على سلخها، وقال آخر على طبخها، فقال صلى الله عليه وسلم: (وعلي جمع الحطب)، فقالوا: نحن نكفيك. فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه)، وقام وجمع الحطب. ولا يتكلم في غير حاجة، فصلاً، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئاً، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، وإذا فرح غرض طرفه، ويفتر عن مثل حب الغمام. ويوليه عليهم، معتدل الأمر، ولا يجاوزه إلى غيره. الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة. ولا يوطن الأماكن - لا يميز لنفسه مكاناً - إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطى كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جلساه أن أحداً أكرم عليه منه، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، وصاروا عنده في الحق متقاربين، لا ترفع فيه الأصوات، ولا عتاب، ولا يعيره، وإذا سكنت تكلموا. يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، يقول: إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه، وكان كثير السكوت، يعرض عن تكلم بغير جميل، كان ضحكه تبسماً، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم محلي بصفات الكمال المنقطعة النظير، حتى خاطبهم ثنياً عليه فقال: {وَإِنْ كُلٌّ عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:4]، وحببه إلى القلوب